المبحث الرابع

أفعال العباد بين الإفراط والتفريط

المطلب الأول

وسطية أهل السنة والجماعة في أفعال العباد

ذكر الشيخ الأمين رحمه الله أنّ هذه المسألة قد ضلّ فيها القدرية والجبرية، وهدى الله فيها أهل السنة والجماعة إلى القول الحقّ بإذنه؛ فقال رحمه الله: «أما القدرية فضلوا بالتفريط؛ حيث زعموا أنّ العبد يخلق عمل نفسه استقلالا من غير تأثير لقدرة الله فيه. وأما الجبرية فضلوا بالإفراط؛ حيث زعموا أنّ العبد لاعمل له أصلا حتى يؤاخذ به. وأما أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا ولم يفرطوا؛ فأثبتوا للعبد أفعالا اختيارية- ومن الضروري عند جميع العقلاء أنّ الحركة الارتعاشية ليست كالحركة الاختيارية-، وأثبتوا أنّ الله خالق كلّ شيء؛ فهو خالق العبد وخالق قدرته وإرادته. وتأثير قدرة العبد لايكون إلا بمشيئة الله تعالى، فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله تعالى، مع أنّ العبد يفعل اختيارا بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه فعلا اختياريا يثاب عليه ويعاقب»[1].

وقد بسط الشيخ الأمين رحمه الله عقيدة أهل السنة والجماعة في القدر، وبين وسطيتهم بين الغالين والمفرطين، وقررها أحسن تقرير؛ فأتى بخلاصة معتقد السلف في القدر؛ فقال رحمه الله: «إنّ الله تبارك وتعالى قدر

(١) دفع إيهام الاضطراب ١٠/ ٣٣٠. وانظر معارج الصعود ص٢٩٧-٢٩٨.

مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق، وعلم أنّ قوما صائرون إلى الشقاء، وقوما صائرون إلى السعادة؛ فريق في الجنة وفريق في السعير . وأقام الحجة على الجميع ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لاتترك في الحقّ لبسا، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك . ثمّ إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في عمله الشقاء الأزلي، وخلق لكلّ واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرتهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء . فأتوا كلّ ما أتوا، وفعلوا كلّ ما فعلوا طائعين مختارين غير مجبورين ولامقهورين : ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[1]، ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[2]»[3] .

وبهذه الخلاصة الجامعة أبرز الشيخ الأمين رحمه الله عقيدة السلف في القدر موضحا وسطية أهل السنة والجماعة بين الغالين والجافين .

وقد سبقه إلى بيان هذه الوسطية علماء أجلاء من أهل السنة والجماعة؛ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي قال : «اعلم أنّ العبد فاعل على الحقيقة و له مشيئة ثابتة، وله إرادة جازمة، وقوة صالحة . وقد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد في غير ما آية؛ كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين﴾[4]، ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن : يعملون، يفعلون، يؤمنون، يكفرون، يتفكرون، يحافظون، يتقون . وكما أنا فارقنا مجوس الأمة بإثبات أنه تعالى خالق،

---

(١)سورة الإنسان، الآية [٣٠].

(٢) سورة الأنعام، الآية [١٤٩].

(٣) أضواء البيان ٢٢٣/ ٧-٢٢٤ .

(٤) سورة التكوير ، الآية [٢٨] .

فارقنا الجبرية بإثبات أنّ العبد كاسب فاعل صانع عامل، والجبر المعقول الذي أنكره سلف الأمة وعلماء السنة هو أن يكون الفعل صادرا على الشيء من غير إرادة ولا مشيئة ولا اختيار؛ مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح»[1].

وقال رحمه الله أيضا: «الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد؛ بمعنى أنها قائمة به، وحاصلة بمشيئته وقدرته، وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه. وهي من الله بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملا له وكسبا؛ كما يخلق المسببات بأسبابها؛ فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه؛ كما إذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة، وهذا الزرع من الأرض؛ بمعنى أنه حدث منها، ومن الله بمعنى أنه خلقه منها: لم يكن بينهما تناقض»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) نقلاً عن لوامع الأنوار البهية ١/ ٣١٣.

المطلب الثاني

موقف الشيخ الأمين من الجبرية

أوضح الشيخ الأمين رحمه الله معتقد الجبرية، وبين أنهم وقعوا في التفريط حيث زعموا أنّ العبد لافعل له، بل هو مجبور من قبل الله لامشيئة له في حركة ولاسكون[1].

وقد ردّ رحمه الله على هذه الفرقة الضالة في مواطن عديدة من تفسيره، وأورد شبههم التي يتعلقون بها، فأسقطها وأقام عليهم الحجة بالآيات القرآنية والبراهين العقلية؛ فقال رحمه الله في معرض الردّ عليهم: «وادعاء أنّ العبد مجبور لا إرادة له ضروريّ السقوط عند عامة العقلاء. ومن أعظم الضروريات الدالة عليه أنّ كلّ عاقل يعلم أنّ بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية كحركة المرتعش فرقا ضروريا لاينكره عاقل. وأنك لو ضربت من يدعي أنّ الخلق مجبورون وفقأت عينه مثلا، وقتلت ولده واعتذرت له بالجبر فقلت له: أنا مجبور ولا إرادة لي في هذا السوء الذي فعلته بك، بل هو فعل الله وأنا لادخل لي فيه؛ فإنه لايقبل منك هذه الدعوى بلا شك، بل يبالغ في إرادة الانتقام منك قائلا: إنّ هذا بإرادتك ومشيئتك»[2].

وهكذا يصور لنا الشيخ الأمين رحمه الله تفاهة هذا المعتقد، ويبين أنه لايقوم على أساس صحيح، بل ولاينظر إلى حقيقة القدر إلا من عين واحدة.

وقد تطرق رحمه الله إلى ذكر بعض شبه الجبرية التي أقاموا عليها مذهبهم، فأوردها رحمه الله بصيغة مناظرة بين جبريّ وسنيّ؛ فقال رحمه

---

(١) انظر معارج الصعودص ٢٩٨. ولعلها (الإفراط وليست التفريط).

(٢) أضواء البيان ٧/ ٢٢٤.

الله: «لو فرضنا أنّ جبريا ناظر سنيا، فقال الجبري: حجتي لربي أن أقول: إني لست مستقلا بعمل، وإني لابدّ أن تنفذ فيّ مشيئته وإرادته على وفق العلم الأزلي، فأنا مجبور فكيف يعاقبني على أمر لاقدرة لي أن أحيد عنه؟

فإنّ السنيّ يقول له: كلّ الأسباب التي أعطاها للمهتدين أعطاها لك؛ جعل لك سمعا تسمع به، وبصرا تبصر به وعقلا تعقل به. وأرسل لك رسولا، وجعل لك اختيارا وقدرة، ولم يبق بعد ذلك إلا التوفيق، وهو ملكه المحض، إن أعطاه ففضل، وإن منعه فعدل؛ كما أشار له تعالى بقوله: ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[1]؛ يعني أنّ ملكه للتوفيق حجة بالغة على الخلق؛ فمن أعطيه ففضل، ومن منعه فعدل»[2].

وهذه الشبهة التي أوردها الشيخ الأمين رحمه الله وردّ عليها قد ردّ عليها غير واحد من السلف رحمهم الله بنحو ردّ الشيخ الأمين رحمه الله؛ منهم العلامة ابن القيم رحمه الله الذي قال يردّ على هذه الشبهة الجبرية: «فما احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي إلا من هو من أجهل الناس وأظلمهم وأتبعهم لهواه.

وتأمل قوله تعالى بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[3]؛ فأخبر سبحانه أنّ الحجة له عليهم برسله وكتبه وبيان ما ينفعهم ويضرهم وتمكنه من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول.

---

(١) سورة الأنعام، الآية[١٤٩].

(٢) دفع إيهام الاضطراب ١٠/ ٣٣١.

(٣) سورة الأنعام، الآية [١٤٩].

فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه»[1].

وأورد الشيخ الأمين رحمه الله أيضا للجبرية شبهة أخرى يبنون عليها معتقدهم الفاسد، وردّ عليها، وفندها. وقد ذكرها رحمه الله مرارا لأهميتها؛ فقال رحمه الله ذاكرا الشبهة ورادا عليها: «فإن قيل: إذا كانوا لايستطيعون السمع، ولايبصرون ولايفقهون؛ لأنّ الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم: فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لايستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟ فالجواب: أنّ الله جلّ وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم أنّ تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم؛ كالختم والطبع والغشاوة والأكنة ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم؛ فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك جزاء على كفرهم؛ فمن الآيات الدالة على ذلك: قوله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾[2]، أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أنّ كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم. وقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[3]، وهو دليل أيضا واضح على أنّ سبب إزاغة الله قلوبهم هو زيغهم السابق. وقوله: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم﴾[4] وفي قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا. . .﴾ الآية[5]، وقوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما

---

(١) شفاء العليل ص١٧.

وانظر رفع الشبهة والغرز عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر، للعلامة مرعي الكرمي ص٣٠. (٢) سورة النسا، الآية[١٥٥].

(٣) سورة الصف، الآية [٥].

(٤) سورة المنافقون، الآية[٣].

(٥) سورة البقرة، الآية [١٠].

لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنّ الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينفع: عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك. وهذا الذي ذكرنا هو وجه ردّ شبهة الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم»[3].

وقد ردّ على هذه الشبهة أيضا عدد من أئمة السلف؛ منهم العلامة ابن القيم رحمه الله الذي قال مبينا سبب الختم والطبع والران على القلوب: «ولكنه عقوبة على كفرهم وإعراضهم السابق؛ فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقدور بإضلال بعده، ويثيب على الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها. . . . - إلى أن قال: - فإنه إذا دعى عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره فأبى العبد إلا إعراضا وكفرا قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره، وصده عن الإيمان به، وحال بين قلبه وبين قبول الهدى؛ وذلك عدل منه فيه، وتكون عقوبته بالختم والطبع والصدّ عن الإيمان كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار. . . . وكذلك عماهم عن الهدى في الآخرة عقوبة لهم على عماهم في الدنيا، ولكنّ أسباب هذه الجرائم في الدنيا كانت مقدورة لهم واقعة باختيارهم وإرادتهم وفعلهم، فإذا وقعت عقوبات لم تكن مقدورة، بل قضاء جار عليهم ماض عدل فيهم»[4].

وقد أجاب أيضا عن هذه الشبهة الإمام ابن أبي العزّ الحنفي رحمه الله الذي قال: «والجواب الصحيح عنه أن يقال: إنّ ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقا لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب

---

(١) سورة الأنعام، الآية [١١٠].

(٢) سورة المطففين، الآية [١٤].

(٣) أضواء البيان ٤/ ١٤٤-١٤٥. وانظر: المصدر نفسه ٦/ ٦٥٣، ٧/ ١٠٩-١١٠، ودفع إيهام الاضطراب ١٠/ ٩-١٠. ومعارج الصعود ص٧٩.

(٤) شفاء العليل ص ٨٦.

قبلها؛ فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها؛ فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضا»[1].

(١) شرح الطحاوية ص ٤٩٧.

وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على هذه الشبهة بنحو ردود هؤلاء السلف رحمهم الله، (أنظر الفتاوى ١٤/ ٣٣١).

obeikandl.com

المطلب الثالث

موقف الشيخ الأمين رحمه الله من القدرية النفاة

بين الشيخ الأمين رحمه الله معتقد القدرية في أفعال العباد موضحا أنهم وقعوا في الإفراط في هذا الباب بإنكارهم القدر وجعلهم العبد مستقلا بكلّ ما يفعل، ليس لمشيئة الله دخل في ذلك[1]؛ فقال رحمه الله في معرض الردّ عليهم: «ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية، وأنّ العبد لايستقل بأفعاله دون قدرة الله ومشيئته: أنه لايمكن أحدا أن ينكر علم الله بكل شيء قبل وقوعه، والآيات والأحاديث الدالة على هذا لاينكرها إلا مكابر. وسبق علم الله بما يقع من العبد قبل وقوعه برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى. وإيضاح ذلك: أنك لو قلت للقدري: إذا كان علم الله في سابق أزله تعلق بأنك تقع منك السرقة أو الزنا في محلّ كذا في وقت كذا، وأردت أنت بإرادتك المستقلة في زعمك دون إرادة الله ألا تفعل تلك السرقة أو الزنا الذي سبق بعلم الله وقوعه، فهل يمكنك أن تستقلّ بذلك؟ وتصير علم الله جهلا بحيث لايقع ماسبق في علمه وقوعه في وقته المحدد له؟ والجواب بلا شك هو: أنّ ذلك لايمكن بحال؛ كما قال تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[3]. ولا إشكال البتة في أنّ الله يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك، ثمّ يصرف الله بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علمه فيأتيه العبد طائعا مختارا غير مقهور

---

(١) انظر معارج الصعود ص ٢٩٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية [٣٠].

(٣) سورة الأنعام، الآية [١٤٩].

ولامجبور، وغير مستقلّ به دون قدرة الله وإرادته؛ كما قال تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[1]»[2].

وهذا المعتقد الذي قرره الشيخ الأمين رحمه الله هو عين ما قرره قبله أئمة السلف رحمهم الله؛ مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي قال: «إنّ أئمة أهل السنة يقولون: إنّ الله خالق أفعال العباد، كما أنّ الله خالق كلّ شيء، وأنه تعالى خالق الأشياء بالأسباب، وأنه تعالى خلق للعبد قدرة بها يكون فعله، وأنّ العبد فاعل لفعله حقيقة»[3].

ومنهم العلامة ابن القيم رحمه الله الذي قال في معرض حديثه عن عقيدة السلف في القدر: «فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات؛ من الأعيان والأفعال، ومشيئته العامة، وينزهونه أن يكون في ملكه مالايقدر عليه، ولاهو واقع تحت مشيئته، ويثبتون القدر السابق، وأنّ العباد يعملون على ماقدره الله وقضاه وفرغ منه، وأنه لايشاؤون إلا أن يشاء الله، ولايفعلون إلا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[4].

ثمّ أخذ رحمه الله يوضح معتقد أهل السنة في أفعال العباد، فقال: «فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه، مخلوقة له حقيقة، والذي قام بالرب عزّ وجلّ علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه. والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم، فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة، وهو سبحانه هو المقدر على ذلك القادر عليه الذي شاءه منهم وخلقه لهم، ومشيئتهم وفعلهم بعد

(١) سورة الأنعام، الآية [١٤٩].
(٢) أضواء البيان ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.
(٣) نقلا عن لوامع الأنوار البهية ١/ ٢١٣.
(٤) شفاء العليل ص٥٢.

مشيئته؛ فما يشاؤون إلا أن يشاء الله. وما يفعلون إلا أن يشاء الله»[1].

وأما عن مذهب القدرية النفاة في هذا الباب:

فقد تعرض له الشيخ الأمين رحمه الله في مواضع عديدة من تفسيره، فردّ عليه، وبين بطلانه وتفاهته، وأسقط الأدلة التي قام عليها، وبين تهافتها:

قال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له مرشدا﴾[2]: «ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم بطلان مذهب القدرية: أنّ العبد مستقلّ بعمله من خير أو شرّ، وإنّ ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه جلّ وعلا عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا»[3].

وقال رحمه الله أيضا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾... - إلى قوله: - ﴿وكانوا قوما بورا﴾[4]: «واعلم أنّ ما ذكره الزمخشري في هذه الآية وأطنب فيه من أنّ الله لايضلّ أحدا: مذهب المعتزلة؛ وهو مذهب باطل، في غاية الوضوح من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإياك أن تغترّ به»[5].

وأورد الشيخ رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾[6]

---

(١) شفاء العليل ص ٥٢.

(٢) سورة الكهف، الآية [١٧].

(٣) أضواء البيان ٤/ ٤٠.

(٤) سورة الفرقان، الآيتان [١٧-١٨].

(٥) أضواء البيان ٦/ ٣٠٠.

(٦) سورة الزخرف، الآية [٨١].

قول الزمخشري الذي أساء الأدب مع كلام الله، وضرب لهذه الآية مثلا بقوله: «ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله تعالى خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه عذابا سرمدا، فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله»[1].

وقد ردّ الشيخ الأمين رحمه الله على هذا القول الشنيع وبين فساد معتقده، فقال: «فانظر قول هذا الضال في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذي يسميه العدلي: إن كان الله خالقا للكفر في القلوب.. إلخ. فخلق الله للكفر في القلوب وتعذيبه الكفار على كفرهم مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد لله. وهذا المستحيل في زعمه الباطل إنما علق عليه أفظع أنواع المستحيل، وهو زعمه الخبيث أنّ الله إن كان خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه فهو شيطان، لا إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. فانظر رحمك الله فظاعة جهل هذا الإنسان بالله، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية؛ لأنه جعل قوله: إن كان الله خالقا للكفر ومعذبا عليه بمعنى ﴿إن كان للرحمن ولد﴾[2]؛ في أنّ الشرط فيهما مستحيل. وجعل قوله في الله أنه شيطان - لا إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا- كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «أنا أول العابدين». فاللازم لكلامه أن يقول: لو كان خالقا للكفر فأنا أول العابدين. وقد أعرضت عن الإطالة في بيان بطلان كلامه وشدة ضلاله وتناقضه: لشناعته ووضوح بطلانه؛ فهي عبارات مزخرفة، وشقشقة لاطائل تحتها، وهي تحمل في طياتها الكفر والجهل بالمعنى العربي للآية، والتناقض الواضح.... ولايخفى تصريح القرآن بأنّ الله خالق كلّ شيء؛ كما قال تعالى: ﴿الله خالق كلّ شيء﴾ الآية[2]، وقال تعالى:

(١) أضواء البيان ٧/ ٣٠٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية [٨١].
(٣) سورة الزمر، الآية [٦٢].

﴿وخلق كلّ شيء فقدره تقديرا﴾[1]، وقال: ﴿هل من خالق غير الله﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إنا كلّ شيء خلقناه بقدر﴾[3]. فالإيمان بالقدر خيره وشره الذي هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشريّ يقتضي أنّ الله شيطان، سبحان الله وتعالى عما يقوله الزمخشري علوا كبيرا، وجزى الزمخشري بما هو أهله»[4].

(١) سورة الفرقان، الآية، [٢].
(٢) سورة فاطر، الآية [٣].
(٣) سورة القمر، الآية [٤٩].
(٤) أضواء البيان ٧/ ٣٠٣-٣٠٤. وانظر المصدر نفسه ٣/ ٥٩٧، ٤/ ٩٠، ٢٧٥.

obeikandl.com

إشكال، وتوضيح

في آخر هذا المبحث أورد إشكالا طرحه الشيخ الأمين رحمه الله بطريقة سؤال وجواب، ولأهميته أسوقه كما أورده:

قال رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين﴾[1]:

«وهنا يرد إشكال يسأل عنه طالب العلم؛ وهو: ما المانع من جعل الناس أمة واحدة؛ إما مهتدين على دين واحد، وإما كفارا كلهم؟ وما الحكمة في جعلهم مختلفين؟. والجواب: أنّ ربّ السموات والأرض غنيّ غنى مطلقا بذاته، خلق الخلق لتظهر فيهم أسرار أسمائه وصفاته، وعلامات ملكه وسلطنته وقهره. ومن صفاته تعالى ما يدلّ على الرحمة والرأفة والشفقة، ومنها ما يدلّ على العزة والقهر والجبروت والغلبة؛ فلو جعل الناس كلهم مهتدين لما ظهر للخلق كمال الإنصاف والعدل، ولما ظهر للناس شدة قهره وجبروته. ولو جعلهم كلهم كفارا لما ظهر للناس آثار رحمته ورأفته وعطفه وجوده وإحسانه. ولهذا هدى الله تعالى قوما وطبعهم على الطيب من الأعمال، وصرف نياتهم إلى ما سبق به الأزل لهم من الخير؛ لتظهر فيهم آثار أسمائه الدالة على الرحمة وغيرها من صفات الإحسان والجود والكرم. وخلق آخرين وطبعهم على الخبث، وصرف نياتهم إلى ما كتب لهم في الأزل وفي سابق علمه من الشقاء؛ لتظهر فيهم آثار قدرته، وشدة بطشه، وكمال عدله وإنصافه»[2].

ولابن أبي العزّ الحنفي رحمه الله كلام قريب من هذا الكلام بين فيه الإمام ابن أبي العزّ رحمه الله بعض الحكم من خلق الخير والشرّ

---

(١) سورة هود، الآية [١١٨].

(٢) معارج الصعود ص٢٩٤-٢٩٥.

والمتضادات؛ فقال: «ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية؛ مثل القهار، والمنتقم، والعدل، والضارّ، والشديد العقاب، والسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذلّ. فإنّ هذه الأسماء والأفعال كمال لابدّ من وجود متعلقها.

ولو كان الجنّ والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»[1]، ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة؛ فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها... فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لايصلح لذلك...»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٠٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٨١-٢٨٢.

وانظر: مدارج السالكين ١/ ٤٠٨-٤٠٩، وشفاء العليل ص ٢٠٢-٢٠٣، ولوامع الأنوار البهية ١/ ٣٤٠.